

نيتشه : عافية الفيلسوف من عافية الشعب

المولدي عزديني¹ تونس

«لا زلت أنتظر وصول فيلسوف طيب بالمعنى الاستثنائي لهذه الكلمة، تكون مهمته دراسة معضلة مجمل صحة شعب، مرحلة، عرق أو الإنسانية، والذي قد يملك الجرأة ليحمل شكّي إلى أقصى حدّ له، ويجرؤ على طرح الفرضية: في كل نشاط فلسفي تمّ حتى اليوم، لم يكن الأمر يتعلّق بإيجاد "الحقيقة"، بل يتعلّق بشيء آخر مختلف، لنقل بالصحة، بالمستقبل، بالنمو، بالقدرة، بالحياة»².

مقدّمة:

كان نيتشه يعترف للعلّة³ بالفضل في حياته الفكرية والنفسية. فقد ألهمته كثيرًا من الجرأة على مراس النقد. وقد تكون العلّة مرضًا يُصاب به الأفراد أو انحطاطًا يتأدّى إليه بالمصير شعب ما. ولئن كانت العلّة في تقابل والعافية، إلّا أنّها تحفّز الفكر الفلسفي على النّظر في مستطاع العافية الشعبية من جهة تأهيلها الفيلسوف للاهتمام بالشعب الذي منه نسبه⁴. فكيف يمكن لشعب ما أن يكون متعافى فينتج لوازم إنتاج الفكر الحر والمواطنة الحق؟ وما الذي يترتّب عن القول إنّ عافية الفيلسوف من عافية شعبه؟ معلوم في حقل فلسفة القيم السياسية والأخلاقية وتشخيصها أنّ نيتشه يحدّد صورة «الفيلسوف بوصفه طبيبًا للحضارة»⁵. وهو ما يجعل من عمله متمحورًا حول التشخيص المفضي إلى رصد أعراض العلّة المنهكة لحضارة ما. وخاصة الحضارة الغربية التي لم تتحرّر بالقدر اللازم فلسفيًا من عدميّتي سياستيّ البورجوازية-الاستعمارية⁶ والثقافة الكنسية الاستبدادية¹. ولمّا كانت حضارات عدّة قد تداولت على

¹ - قسم الفلسفة، كلّية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة صفاقس، تونس.

² - نيتشه (فريدريش)، العلم الجدل، تقديم، تعريب سعاد حرب، طباعة دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، توزيع المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط.1، بيروت، 2001، §2، ص.9.

³ - وسواء أُنعت العلّة في اعتلال البدن الذي لطالما عانى منه أم في وهن الحضارة الأوروبية كما يشهد بذلك تقديره للمسار العدمي السلبي لها، فإنّها لا تعطلّ في منطق نيتشه عمل الفكر ولا تخفّض من رهاناته. وكيفما كان أمر العلّة البدنية أو العلة الحضارية، فثمّة في الحالتين مدار تفكير فلسفي يفتح أمام الفيلسوف.

⁴ - مقدار ما يحتفي الشعب بالفيلسوف.

⁵ - II. Le philosophe ، Le livre du philosophe (Études théorétiques)، Nietzsche (Friedrich)

، int. et notes par Angèle KREMER-MARIETTI، trad.، comme médecin de la civilisation p.113، §175، 1991، Paris، G.F.

⁶ - كان نيتشه مناهضًا للنزعة الاستعمارية البادية على السلوك السياسي لبعض الدّول الأوروبية. انظر في هذا السياق ما كتبه ستيفان أوديف: «وإنّا لنعرف حالات خدمت فيها النيتشوية حتى درجة ما من حيث هي محرّض أوّل على اتخاذ موقف معادٍ للثقاق السياسي والأخلاقي عند البورجوازية الليبرالية»، على دروب زرادشت، تعريب فؤاد أيّوب، دار دمشق، ط.1، دمشق/بيروت، 1983، ص.15.

بناية التاريخ العام، فإنَّ ما ذهب إليه نيتشه أساساً في كتاب الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي² يعتبر رصداً نقدياً لشروط عافية الشعب وما أنتج من فلسفات (سياسية، إتيقيّة، اقتصادية... الخ).
ففي مسألة عافية الشعب والفيلسوف توقّف نيتشه عند أمرين أساسيين في لحظتين تاريخيتين متباعدتين: فالأولى من التاريخ القديم مع أهل يونان. أمّا الثانية، فمع أهل أوروبا في القرن التاسع عشر. ففي اللحظة التاريخية الأولى تبين له أن «لا أحد من فلاسفة الإغريق قد حمل الشعب وراء ظهرانيه»³. ممّا يفيد أنّ الفيلسوف كان على وصالٍ مع شعبه من جهة الاهتمام به مقدار ما كان الشعب الإغريقي ينزلُ فلاسفته المنزلة الحق منذ بواكيره الأولى وحتى عتبة انحطاط الإمبراطورية اليونانية. وهكذا ما كان للفلسفة أن تكون مجرد معرفة⁴ نظريّة وحسب، وإنّما هي من الرّفعة ما جعلها اعترافاً⁵. إذُ تعترف الفلسفة بالشعب ويعترف هذا الأخير بالفلسفة. أمّا اللحظة الثانية فهي من صميم الحداثة الأوروبية المتجهة نحو عدميّة سلبية. وفي هذا السياق يُدين حداثّة أوروبا قائلاً: «ليس لدينا فلسفة شعبية نبيلة، لأنّنا لا نملك

¹ - ما ينفك نيتشه يعبر عن سخطه من أنفاس الثقافة السياسية للمسيحية الغربية، وقد أسهمت في تدجين الناس وحملهم على التخلّي بالسلوك الهجين والمشين. ونلاحظ ذلك في نصّ له حيث يقول: «إنّنا لا نستخفُ بالشؤم الذي نفذ متغلغلاً من المسيحية إلى السياسة! لا أحد يملك الشجاعة اليوم ليطالب بالحقوق الخصوصية، وبالسيادة، وشعور الاحترام المجلّ لنفسه ولبنى قومه، وللمناداة بتعاطفه مع الفوارق والمسافات الطّبيعية... سياستنا مريضة بنقص الشجاعة هذا»، **عدو المسيح**، تعريب جورج ميخائيل ديب، دار الحوار، ط.1، اللاذقيّة، 2004، §43، ص.121.

² - فضلاً عن الكتاب المذكور للتوّ يمكن العودة في مسألة عافيتي الفلسفة والشعب إلى كتاب **الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي**، تقديم ميشال فوكو، تعريب سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط.2، بيروت، 1983، وخاصةً §§1-4، صص.37-53. انظر في ذات الغرض النسخة الفرنسية لنفس الأثر: *La philosophie à Michel*، trad. de l'allemand par Jean-Louis BACKES، vol.2، t.1، *l'époque tragique des Grecs* (in *Euvres*، pp.213-228، §§1-4، 20 novembre 1975، HAAR et Marc B. DE LAUNAY textes et variantes établis par Giorgio COLLI et Mazzino، *philosophiques complètes* nouv. éd. chez ، s. la dir. de Gilles DELEUZE et Maurice De GANDILLAC، MONTINARI Die (en 14 t.، 1982-2008، Paris، Gall./nrf وللتّظر في الأصل الألماني يمكن العودة إلى: *Die in ، Nachgelassene Schriften (1870-1873)، Philosophie im tragischen Zeitalter der Griechen* (Kritische Studienausgabe Herausgegeben von Giorgio Colli und ، KSA1، *Sämtliche Werke* ، Deutscher Taschenbuch Verlag de Gruyter، in 15 Einzeländen)، Mazzino Montinari §§1-4، November 1988، Berlin/New York، S.804-822. لن نعيد لاحقاً ذكر كل المعطيات المتعلّقة بالأعمال الكاملة لنيتشه بالفرنسية والألمانية كما هو مبين بهذا الهامش.

³ - II. Le philosophe comme médecin ، *Le livre du philosophe (Études théorétiques)*، Nietzsche p.113، §175، op.cit.، de la civilisation

⁴ - معرفة (في معنى ابستمولوجي) Une Connaissance

⁵ - اعتراف (في معنى إتيقي) Une Reconnaissance

مفهوماً نبيلاً للشَّعب¹. فلسفتنا الشَّعبية للشَّعب، وليس للعموم²». فما هي إمكانات عافية الشَّعب؟ وما علاقة ذلك بما يمنحه للفلسفة من وضعٍ وظيفي؟

هو ذا محور اهتمام فلسفي حادث مع «السَّيد نيتشه»⁴. فلم يعد الفيلسوف من معدن «الضفادع المفكَّرة»⁵، بل تصيّر شبيهاً برجلٍ عياديٍّ⁶ منشغل بالتشخيص ومتجاوز للانشغال الكلاسيكي بالثنائيات وقسمتها الضيزي⁷. وعليه، تُرفع الكلمة الفلسفية إلى مرتبة عليا لدى من اعتبر نصيبه من الفكر رهن نصيب شعبه وأرضه ووطنه من التعافي.

¹ - ورد اللفظ في النص الأصلي مكتوباً بالفرنسية ومتبوعاً بمرادفه اللاتيني (publicum).
² - يميّز نيتشه بين مقولتي الشَّعب (peuple/Volk) والعموم (public/Allgemeinheit). فالأوّل هو الذي تتوجّه إليه جهود الفيلسوف الفكرية-النقدية من أجل ترفّيه ورفعته وعافيته. أمّا الثَّاني، فهو الوضع الوضع الذي تكون عليه العامّة غيبية وهجينة ومنتكّرة لجهد عظماء الشعب (وليس في الفلسفة فقط، وإنّما أيضاً في سائر الآثار العظيمة للرجال الكبار والأحرار). وربّما تكون نظرة نيتشه للعموم من بين الأسباب التي دعت له للاعتراض على بعضٍ من مدّعي الحميّة للنّظام السياسي الاشتراكي. وهو ما عبّر عنه في قوله: «فالاشتراكيون يتوقون إلى أن يكفلوا حياة هائلة لأكبر عدد ممكن من النّاس. ولو تحقّق ذلك بالفعل في مقرّ دائم للحياة الهائلة، أعني في الدّولة الفاضلة، لقضى ذلك العيش الهائل على التربة التي تنبت فيها العقول الكبيرة، والأفراد العظام بوجه عام -وأعني بهذه التربة، الفاعلية الزّائدة» trop ، Humain ، éd. revue ، trad. Robert ROVINI، vol.1، t.III، in OPC،humain (Un livre pour esprits libres) 1
p.183، §235، 1988، par Marc B. DE LAUNAY . وفي كلّ ذلك يدين نيتشه أولئك الذين يفتقرون إلى الشعور برفعة نسبهم. فهم سرعان ما يقعون في الحضيض. ونجده يحدّد خصائصهم الدونية قائلاً: «من المحتمل أنّه لا يزال ينقص الصّناع وكبار أصحاب المشاريع حتى الآن، لا يزال ينقصهم كلّ أشكال وخصائص العرق الأعلى، التي تعطي الأهميّة للأشخاص: لو كان لديهم تميّز كرام المحتدّ في النّظرة والسُّلوك، ربّما لما كان هناك من اشتراكية العوام»، العلم الجذل، الكتاب الأوّل، §40، ص.61.

³ - Nietzsche، *Le livre du philosophe (Études théorétiques)*، op.cit.، I. Le dernier philosophe، §29، « Nous n'avons pas de philosophie populaire noble »، parce que nous n'avons pas de concept noble du peuple (publicum). Notre philosophie populaire est pour le peuple (p.44).، §29، «le public »

⁴ - نيتشه، العلم الجذل، تقديم، مصدر مذكور، §2، ص.7.
⁵ - المصدر نفسه، §3، ص.9.

⁶ - Un homme de clinique. ومهمّته تتبّع علامات العلّة، فتشخيصها ثمّ طرح صيغة معالجتها.
⁷ - قسمة الميتافيزيقا الكلاسيكية تقوم على النّظر إلى طرفيّ الرّوج المفهومي بحيفٍ فلسفي. ففي مسألة الثنائيات والقسمة (Les dualités et la dichotomie) تكمن أنفاس اضطهاد اللغة والفكرة وحتى المفهوم رغم صبره تاريخاً طويلاً حتى مجيء نيتشه بالبيات نقدٍ غير تقليدية. وفي هذا السياق نراه يعترض قائلاً: «لا يحقّ لنا نحن الفلاسفة أن نفصل بين الرّوح والجسد، كما تفعل العامّة، كما أنّه ليس من حقّنا أبداً، أن نفصل بين الرّوح والدّهن. فنحن لسنا ضفادع مفكّرة، أدوات توضيح وتسجيل من دون شعور»، نيتشه، العلم الجذل، تقديم، مصدر مذكور، §3، ص.9. للإطلاع على النصّ الأصلي، انظر: أولاً، النصّ الفرنسي: «Il ne nous appartient pas»، à nous autres philosophes،

صراع نيتشه مع العلة

يتضاعف السمو الفكري الذي يسم منتجات العقل كلما اشتدَّ الألم وكبر. تلك هي حال نيتشه، فقد طرح مسألة العلة بما هي اعتلال البدن وما تبعه من إنهاك¹ مؤثِّر على الصحة النفسية، فنهوض العقل إلى الاشتغال بالحكمة الفلسفية، في المقابل. إنَّه يثير ما لم يمنحه التاريخ الفلسفي الاهتمام اللازم. وبنظره كانت «الفلسفة القديمة تجهل هذه المشاكل جهلاً تاماً، وقد تلاقت دائماً، بأعذار تافهة، دراسة أصل وتاريخ الأحاسيس الأخلاقية»²،³. غير أنَّ وعي الفيلسوف بما هو عليه عموماً من تموقع بين التيارات الفلسفية، فضلاً عما تمليه عليه موجبات التعافي ليدفعه إلى الاستزادة من التفكير والعزم على المقاومة ضدَّ ملمح التناهي القائم وإطلالة المنتهي المقبل. وعسى أن نرى في تلك المقاومة ثقافة «تبيح لنا أن

encore moins de séparer l'âme de l'esprit. « comme fait le vulgaire, séparer l'âme du corps des appareils d'objectivation et d'enregistrement. Nous ne sommes des grenouilles pensantes trad. de l'allemand, V, in OPC, *Le Gai savoir (La Gaya Scienza)*, Nietzsche « sans entrailles » impression à, éd. revue et augmentée par Marc B. DE LAUNAY, par Pierre KLOSSOWSKI « Es steht uns Philosophen nicht : النص الألماني: 2 février 2006, Plessis-Trévises es steht uns noch weniger, wie das Volk trennet, zwischen Seele und Leib zu trennen. frei keine, zwischen Seele und Geist zu trennen. Wir sind keine denkenden Frösche. frei Die fröhliche, Objektivir- und Registrir-Apparate mit kalt gestellten Eingeweiden » S.349., (25-30), §3, KSA3, SW, Wissenschaft

¹ - ففي هذا السياق يشير نيتشه إلى ثلاث غرائز: الضحك والشفقة واللعة. وبشأنها يقول: «أعتقد أنَّ هذه الغرائز التي تتقابل فيما بينها ستعرف أن تتفق لتصير محسوسة وأن تسيء الواحدة منها للآخرى: من هنا ربَّما يتأتَّى هذا الإنهاك الفجائي الذي يعرفه كلُّ المفكرين (الإنهاك المقيت الفجائي للجندي في ساحة المعركة)»، العلم الجذل، مصدر مذكور، كتاب رابع، §333، ص.182.

² - انظر في هذا الشأن ما قصده أندري كلار وحدَّده بقوله: «بالنظر إلى تكون الأخلاقية، فإنَّ الأمر يتعلَّق بالتحوُّل من الحيوانية إلى الإنسانية؛ إنَّه الفعل الأولي للخلفنة والجمعة وهكذا فتمَّة هنا شيء أكثر بدائية من الحقوق والعقد»، Clair (André), *Éthique et humanisme (Essai sur la modernité)*, Paris, Cerf, 1989, p.146.

³ - نيتشه، إنسان مفرد في إنسانيته (كتاب العقول الحرة)، ج. 1، تعريب محمَّد النَّاجي، إفريقيا الشرق، بيروت - لبنان/الدار البيضاء-المغرب، 1998، §37، ص.41.

⁴ - في هكذا مقاومة من أجل الحياة وما توقَّرت عليه من الأشياء البهيجة، يقول يانكو لافرين مستعرضاً نظرة نيتشه للمرض وتبعاته: «نظر نيتشه إلى الصحة والمرض من زاوية طاقتهما على الدَّفْع والإثارة، ونتيجة لذلك بسط موقفه بأن رحَّب بكلِّ ما يمكن أن يخدم ما سمَّاه "الصحة العليا"، أي قدرة الإنسان الأساسية على المقاومة، مهما يكن ذلك قد بدا صعباً في بعض الأحيان»، نيتشه، تعريب جورج جحا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر، بيروت، 1973، ص.59.

نسأل إذا لم يكن المرض¹ هو ملهم الفيلسوف². فليس يبحث الفيلسوف في هذا المقام من الحديث عن تواشج رابطة التعافي لديه مع فيض التفكير في العلة وحسب. فقد عرف نيتشه من فترات التحول من العلة إلى العافية الكثير. فوظيفة الفكرة الفلسفية الطموح أن تتجاوز مع الأوضاع الصحية المتواترة³ ولا تتكسر. وكيفما كان الوجد وحديثه، فعلى الفيلسوف أن يفعل مقدار ما عليه أن يرتضي لذاته التعافي من اعتلال البدن والشعب. يضعنا هنا نيتشه أمام تعدد هيئات الفيلسوف وصفاته. فحسبه أن لكلٍّ إيعازه وكنهه الذي منه إقامته في رحاب الحياة. ولمّا كانت هذه الأخيرة من القسوة بمكان على نفوس الفلاسفة فإنّ تنوع حيوزاتهم من حيوات الدنيا والتاريخ ستوفّر لهم أكثر من سبيل منتجة للتفلسف. لذلك يرى أنّ «البعض تتفلسف فيه عيوبه، والبعض الآخر قوّته وغناه. فلسفة الأوّل ضرورة له، كدعامة وترياق وخلاص وترفع وابتعاد عن الذات، وليست فلسفة الآخر إلّا ترف جميل، وفي أحسن الأحوال، تنعم، اعتراف بالجميل لمنصر عليه لكي يكتمل أن يندرج بأحرفٍ كونيّة على جلدِ المفاهيم»⁴. ربّما يرى بعض «المشتغلين بالفلسفة» من أهل المعاصرة أنّ الفلسفة لا تتكلّم شاعريّاً مع نيتشه إلّا على حساب تقديم المفهوم ومهابته النظرية. غير أنّ هذا من معيب الأفاهيم الصغرى لعلاقة التفلسف بالتعافي عند صاحب المعرفة الجدلي. فلطالما دفعتنا كلاسيكيات الفلسفة ومناظرها المجردة والمتعالية إلى استخزاء الذاتي والشعوري والحسي والإيروسى... الخ.

فحقيقة الأمر مع نيتشه أنّ التظنن بالمشاعر ووجعها هو من قبيل نكران الذات المرفوض أصلاً عند نيتشه. فقدّر فيلسوف الحياة المرحّة والعاشقة للرفيع والمِصْرانيّ أن يتلمّس وسط كومة الأوجاع مفتشاً عن القشة الحق: منبت القول والكلمة الفلسفيّين. فثمّة من أوجاع الحياة ودرجاتها الصّفر ورهاناتها المتعدّية والمرتدّة ما يجعل من الفيلسوف نيتشه ينظر إلى المفهوم الفلسفي وتصيُّره إمكانيّاً وفعلاً بوصفه وريث أعماق النّاس وأسئلته بشأن أوجاعهم. وليس يتولّد المفهوم الفلسفي فقط من سؤال الفلاسفة الرّئيس: ما هو الإنسان؟ هاهنا ننتقل مع نيتشه من سؤال الإنسان إلى أسئلة الناس وما بطنّت. وعليه، حقّ له

¹ - بخلاف تعاطي الفيلسوف نيتشه مع المريض ومرضه، فإنّ الأطباء بنظره يحتاجون إلى تجديدٍ في النّظر إلى عين الأمر. وهنا يسوق إليهم وصيّة نصوحاً: «أخلاق للاستعمال من قبل الأطباء. المريض حشرة المجتمع. فهو ما أن يبلغ حالة ما، فلا يتواءم والعيش أطول»، *Crépuscule des Idoles ou (Comment philosopher à coups de* impression à Plessis-، trad. de l'allemand par Jean-Claude HÉMERY، VIII، in *OPC، marteau*) p.128، §36، 5 juillet 2004، Trévis

² - نيتشه، *العلم الجدل*، تقديم، مصدر مذكور، §2، ص.8.

³ - ونحن نجده يتحدث عن نفسه قائلاً: «كما أنّي أعي كلّ الأفضلية المطلقة التي تقدّمها لي التغيّرات اللامتناهية لصحتي، حول كلّ ممثّل فظّ للدّهن. إنّ كلّ فيلسوف قد مرّ ولا يزال يمرّ بعدّة حالات من الصّحة، قد مرّ بعدد مماثل من الفلسفات: ولا يمكنه إلّا أن يحوّل كلّ حالة من الحالات إلى الشّكل والأفق الأكثر روحانيّة»، نفس المصدر، §3، ص.9.

⁴ - نفس المصدر، §2، ص.7.

القول: «إذ يجب علينا دائماً أن نولد أفكارنا من أعماق آلامنا، نغذيها بكل أمومة بكل ما لدينا من دم وقلب ورغبة وعشق وعذاب ووعي وقضاء وقدر»¹. فهل كان نيتشه يرى في الصحة والعلّة ثنائية قائمة على التناقض؟

لا يسع فيلسوف الما وراء أن يقع في نشاز مع نهجه الفلسفي الذي يتفكّر الثنائيات الكلاسيكية² على اعتبارها من متناقضات الصنّافة الأكسيولوجية للقيم. فقلد رأى نيتشه في العلة والعافية وضْعَيْن متمازجين يُساق إليهما الفيلسوف عضويّاً بوصفه إنساناً وفكريّاً بوصفه حكيماً. غير أنّ العضوي وما حمله وجعه من عذاب ومرارة في غالب الأحيان يعجّل من الجهة الفلسفية باستيعاء الاعتلال مصدراً قادحاً للتفكير الفلسفي. هكذا يتصوّر نيتشه مؤديات الاعتلال البدني وقد ضاعف منها اعتلال الحضارة والشعب. فبشأن ذلك يقول: «من الآن فصاعداً، نعرف إلى أين ونحو أي شيء يقود الجسم المريض³، مع فاقتة، الدهن ويدفعه بلا وعي نحو الشمس، نحو الهدوء، نحو العذوبة، نحو الصبر ونحو الأدوية، بمعنى ما نحو التعزية»⁴. إنّ صيغة التجاوب (التفاعل) مع حالة المرض تستحيل إلى استيعاب لما تكون عليه الحياة من صلف أو متعة أو حتى ليونة أحياناً. فقد تكون الحياة على هيئة الترحال أو المداومة على الإيعاز بأنّها متاع عسر على أهلها من الفلاسفة. فلا يُردّ اعتلال البدن لدى الفيلسوف إلى العضوي وقد وهن وحسب، وإنّما أيضاً إلى ما في صفو الحياة من نذر بالهلاك والفاجعة والاستحالات المتصيرة دوماً إلى مصائرهما المرتقبة وأو اللامرتقبة. وبالنسبة، فإنّ تشابك الحياتي والعضوي من تشابك الأفكار

¹ - نفس المصدر، §3، ص.9.

² - القرار الفلسفي النيتشي هو الحسم في صيغة ميتافيزيقية من التعامل مع وهم التعارض بين القيم. وبعد أن خبر الأمر أكسيولوجياً وتقرّد بفلسفة خاصة في القيم الفنية والسياسية والإتيقية...الخ، نجده يعبر عن ذلك في النص التالي: «بعد كلّ هذا التحقيق مع الذات، وهذا الإغراء للذات، نتعلّم بأن نعيد النظر بشكل أكثر حدّة مع كلّ ما تمّت فلسفته حتى الآن: نحذر أفضل من قبل ضلال وألعيب وأنواع المصاييف وزوايا الفكر المشمسة، حيث لم يُترك الفلاسفة أنفسهم ينقادون ويُفتنون، بالرغم منهم، إلّا لكونهم كانوا مرضى»، نفس المصدر، §2، ص.8.

³ - لا يشكّل المرض البدني حائلاً دون تفكّر الفيلسوف مواضيعه. وقد رأى أحدهم «أنّ منزلة المرض التي يتحدث عنها نيتشه أكثر تركيباً. فالإلى جانب المرض المزمن والاعتلالي الذي سيمثّل مسألة، يفترض الفيلسوف وينميّ حدّاً مؤقتاً للمرض بما هو اختبار وقتي كامن في العافية الحقيقية، وفي ما يسمّيه "العافية الكبرى"»، (Cherlonneix (Laurent)، *Nietzsche (Santé et maladie)*, L'Harmattan، l'art، 2002، Paris، coll. Ouverture Philosophique، p.15.

⁴ - نيتشه، العلم الجذل، تقديم، مصدر مذكور، §2، ص.8.

والأزمة¹. أمّا ما يشكّل خشية عند نيتشه هو تعيّن الانحطاط علّة² فكموناً للوهن والإعلاء الحضاري من شأنه وكأنّه كسب أو كشف عظيم.

الأمراض التي كانت تقلقه قد تكون هي التي دفعت إلى تخيّر نيتشه للكتابة الحكيمّة والشذريّة، والتي هي قادرة على حمل معنى النّقد الفلسفي. إنّها «توافق اتجاه فكره وتفسح المجال لصياغة مقتضبة وجريئة ترفض ذكر الأسباب»³. وهذه العافية الكبرى هي المقدرة المتعاضمة في الكيان الداخلي للإنسان الفرد والتي بمقتضاها يكون قادراً على الإثبات والتّقويم وخلق القيمة وانتزاع المعنى من المبصر بالعقل العظيم. وحتى لو كان ذلك في قَمّة الشّعور العميق بالعلّة. ذلك أنّ الحياة واحدة متنامية وتائقة إلى تعظيم شأنها. فالعلّة لا تبلغ بنيتشه مبلغ الوهن الشّديد وإنّما تدفعه إلى مغالبة أشكال الانحطاط. إنّ كلّ هذه القوى كامنة في الجسد، موطن العافية المتنامية وحتى لو كان في أحلك فترات اعتلاله. وعلى هذا الأساس يتّخذ الجسد قيمة رمزيّة، فضلاً عن قيمة الحيّ فيه. وفي هذا السياق يقول سوشون: «ففي الجسد تكمن هذه القوى والمستحثّات. فالجسد يصير أصلاً للأفكار وأحكام القيمة، ليس في المعنى الفيزيولوجي أو الآلي، وإنّما بالأحرى الرّمزي. إنّ أجسادنا ترمّز ما حدث في الجسد. فمن الفرد-الذات-الواعية الموروثة عن ديكارت، نصل إلى المفهوم النيتشي الجدّ مختلف، إنّهُ "الذاتيّة العضوية"»⁴. إذًا، بخلاف المرضى بأنفسهم⁵ والواقعين خنوعاً تحت وزر أوهامهم النسقيّة وما لاح لهم من «كشّاف الحقائق»، لا يتفكّر نيتشه العيش في عالم من نسج خيلاء ميتافيزيقا الثنائيات. إنّهُ فيلسوف الماوراء: حينما للضديد الكلاسيكي جنيس ولا ضديد.

أمّا من جهة السيرة الفلسفيّة والحياتية والسياسية فقد كان لمشاركة نيتشه في الحرب الألمانيّة الفرنسيّة لسنة 1870 الأثر الكبير في الدراية بمثني الصّحة والعلّة. كتب نيتشه لأُمّه التي كان يحبّها، على غير سنّة شوبنهاور، كيف أنّه كان يداوي نفسه، فقال: «من الصّعب الحكم على طبيعة مرضي. وأنا أعلم من أيّ طبيب بطريفة علاجه. فلنكن ثقتك بي كبيرة، لأنني لا أدع المرض يعمل فيّ ما يشاء. لقد

¹ - انظر في هذا السياق ما ذهب إليه عبد الرّحمان بدوي، حيث اعتبر «المرض وحده الذي يُشعرُ الإنسان بالصّحة، ويحمّله على دراسة الحياة، وفهم طبيعتها، لأنّه يستثيره إلى المقارنة بين هاتين الحالتين المتضادّتين»، نيتشه، وكالة المطبوعات، مجموعة خلاصة الفكر الأوروبي، سلسلة الفلاسفة، ط.5، الكويت، 1970، ص.111.

² - يمكن الرجوع في هذا الغرض إلى هذا النص: «ليست العلّة إلّا انحطاطاً والعافية نقيضها التي هي غير مناقضة للمرض بالنسبة إلى نيتشه وإنّما للانحطاط»، Souchon (Gisèle)، *Nietzsche (généalogie de l'individu)*، coll. Commentaires philosophiques، Paris، 2003، p.65.

³ - فنك (أويغن)، *فلسفة نيتشه*، تعريب إلياس بدوي، منشورات وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974، ص.9.

⁴ - Souchon (Gisèle)، *Nietzsche (généalogie de l'individu)*، op.cit.، p.66.

⁵ - عن هذه الشريحة من الناس يقول جورج زيناتي: «السّقماء يشيّدون الأوكار والأعشاش ونسيج العنكبوت»، *رحلات داخل الفلسفة الغربيّة*، دار المنتخب العربي للدراسات والنّشر والتّوزيع، توزيع المؤسّسة الجامعية للدراسات والنّشر والتّوزيع، ط.1، بيروت، 1993، ص.114.

مرّ عامان على محاولتي علاج نفسي بنفسي؛ وإن كنت قد ارتكبت أخطاء خلالهما، فإنّ ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى قبولي لنصائح الآخرين. ولهذا يجب عليّ أن أتخلّص، أولاً، من طرق الأطباء العديدة، التي تداويت بها. وأرجو أن لا تلوميني ((...)) لأنني أريد أن أكون طبيب نفسي المطلق»¹. فالمعنى المبتكر على النحو النيتشي في هذا المضمار هو أن ليس الاعتلال عائلاً حائلاً بإطلاق دون إمكانات الارتقاء والترفع وحمل الذات على تجاوز ذاتها اقتداراً وإرادة وتداوياً. فليس تُحبس معه أنفاس الحياة ولا التفكير بما بلغ الوجد مبلغه في كيان نيتشه عموماً وجسده خصوصاً. إنّما المقامرة والاندفاع الحيوي هما السبيل إلى البقاء في طور معايشة الحياة ولو بالفكرة الصغرى.

صحيح أنّ الألم قد يترنّم، إلّا أن العناد بالإرادة حمّال للجسد والعقل عند نيتشه إلى أرحب الآفاق وفيما وراء منطق الخير والشر. وفي سياقه المخصوص من الوجد يقول: «إنّ هذا الألم البطيء الذي يأخذ حظه من الوقت والذي يستهلكنا كما يحترق العشب الأخضر هو وحده الذي يرغمنا على النزول في أعماق أغوار نفوسنا ((...)) ومن المشكوك فيه أن يكون من شأن هذا الألم تحسين أحوالنا؛ ولكنّه، يقيناً، ومن دون شك، يجعلنا أشدّ عمقاً»². أيّعني ذلك على الطريقة النيتشوية أنّه يراهن على التعافي من صميم حالة العلة واستيعائها؟

الفيلسوف والعافية

إنّ من طبيعة الكائن البشري كحيّ أن جُبِلَ على حبّ الحياة والعيش من أجلها ومقاومته لكلّ حابس لها ومانع. وقد تتضاعف رغبة الفيلسوف في ذلك كلّما كان بحرف الحياة شاعراً خشونةً. بل، وكلّما استشعر في نفسه وروحه وجسده وحتى مخيلته أو ذاكرته بأنّ تناهي الحياتي غليظ، وأنّه منتج للأمرتقّب من صروف الدّهر وأقدار التاريخ. ففي صلب هذه المعمة من الحياة ودائرة المشاعر المتضاربة بها تزداد حيوية الإقدام³ وتتضاعف على الحياة بالفكر وجمالياته المؤكّدة. ولعلّ هذا ممّا حدا بنيتشه إلى القول: «من رغبتني في الشفاء، ومن إرادتي في الحياة، استخلصت فلسفتي»⁴. هكذا، يعترف نيتشه بفضيلة حالته الصحية من جهة كونها القائم المسند للفكرة الفلسفية. وبشأن ذلك يقول معللاً: «لأنّ للمرض شاطئين: أحدهما شاطئ الألم المظلم، والآخر شاطئ الصّحة المشرق ((...)) وصحّته هذه

¹ – 173. p. in *Lettres choisies*, (mi-juillet 1881), *Lettre à sa mère*, Nietzsche

² – 1, in *OPC*, épilogue, *Nietzsche contre Wagner (Dossier d'un psychologue)*, Nietzsche

VIII, trad. Jean-Claude HÉMERY, 2004, p.370.

³ – لم يتوقّف نيتشه مشدوهاً تجاه العطب البدني وهيئاته وتأثيراته التي قد تبلغ حدّ الإحالة إلى العطالة الفكرية. وعليه، «تبنّى نيتشه مرّة أخرى، من حيث "الستراتيجيا"، وغريزياً، بل كان عليه أن يتبنّى - الوضع الأفضل لاستنفار الحيويّة التي كان يحتاج إليها في سبيل مناهضة جسده المريض المنهار»، لافرين، نيتشه، مرجع مذكور، ص.56، (بتصرّف).

⁴ – 247. p. in *pourquoi je suis si sage ?*, *Ecco Homo (Comment on devient ce que l'on est)*, Nietzsche

VIII, trad. Jean-Claude HÉMERY, 2004, §2, p.247.

المكتسبة بعد الألم أسمى بكثير من الصحة السابقة عليه، لأنّ المرء يكون قد اكتسب ميزات كبرى ((...)) عن طريق الألم الذي مرّ به»¹. ليس ما يعرضه نيتشه في مثل هذه المواضع من منته الفلسفي من قبيل الترجمة الذاتية أو الحديث عن الأنا المعتد بذاته. بل، هو من أمر الكشف عمّا في نسابة التفكير الفلسفي إلى الصحة من ترقٍّ وتوقٍ إلى المقيّل بالفعل في الحياة والشعور بالحياة وبيان ما في الحياة من فضلٍ على نتاج الفكر من تميّزٍ وعلى ما في القيم الناقدة من ابتكارٍ للمفاهيم المعبّأة بالحياة المتعافية. فالأثر الشخصي متعيّن في النصّ الفلسفي كتجربة حياتية ولادة. هكذا نجده متحدثاً عن نفسه: «لنترك السيد نيتشه هنا: فماذا يهّمنا في استعادة السيد نيتشه لصحته؟... قلّما يعرف عالم النفس مسائل مغربية كمسألة العلاقة بين الصحة والفلسفة وفي حال مرضه بالذات، فإنّه يعايش مرضه مع كلّ حشرفته العلمية. في الواقع لكلّ شخص فلسفته، المهمّ أن نكون شخصاً: ومع ذلك ثمة اختلاف بين هنا»². يعترف الفلسفي هنا بما للاختلاف في منشأ التفكير من منطق فعّال ومنتج للمعنى. هو منطق وهبته حياة الجمال والرفعة لأولئك الذين يتحسّسون آلامهم (العضوية وغيرها) على النحو الذي يثمر الفكرة ويثبت نسبها إلى الحياة المعيشة لا إلى المجرد من رؤى الفكر الميتافيزيقي الحبيس للثنائيات المتناقضة. ولعلّه من مقاصد نيتشه بيان ما في الصحة من سعادة الفيلسوف وبهجه وتآلف مع الحيوانات³ وتصيراتها واستحالاتها وما يمكن أن تنتجه من معاني الرفعة والعظمة والبهاء. وإنكار على المرض السبب في العطالة الفكرية. ومن الإرادة الفعّالة أن يتسلّح الفيلسوف ببهجة وحبور وهو يواجه إكراهات المرض. فمقاومته شأن من شؤون النّفس.

وعلى النقيض من بعض الفلاسفة⁴ الذين يوقع بهم المرض في دائرة اللاّ فعل ويوهن عزمهم، يقول نيتشه: «وفي الحالة الأخرى الأكثر شيوعاً، عندما يتقلّص البؤس كما عند جميع المفكرين المرضى، وربما كان المفكرون المرضى هم الأكثر شيوعاً في تاريخ الفلسفة: إلى ما يصير الفكر نفسه، عندما يخضع لضغط المرض؟»⁵. يبدو أنّ التكثيف الطّاقّي الذي يعيشه الفيلسوف بوصفه مستقلاًّ تجاه محدثات

¹ - Nietzsche, *Nietzsche contre Wagner*, 1, épilogue, op.cit., p.114.

² - نيتشه، *العلم الجدل*، تقديم، مصدر مذكور، §2، ص.7.

³ - ربّما كان في العلّة سبباً من أسباب الحياة، «أمّا إذا استمرّت حاله في صحّة دائمة، فإنّه لن ينتبه لمعنى الحياة»، بدوي، *نيتشه*، مرجع مذكور، ص.111.

⁴ - كانت الكتابة الفلسفية السابقة لنيتشه نسقيّة من جهة البناء والمصطلح المستخدم والطّرح الإشكالي، وهذا ما لم يلتزم به نيتشه الذي شرّعه بعلّته الصحية. وليس عيباً ألاّ يكثر نيتشه بتقديم الحجج على ما يطرحه من أفكار وفقاً لمألوف الفلسفة. ومن مواطن الجدّة في فلسفة نيتشه عدم انتهاج دروب الفلسفة الواقعيين بنظره في انحطاط نظير وانحطاط عصورهم وأفكارهم. انظر النصّ-المقال لرجاء العتيبي عزّوز وفيه تقول: «إذا تأملنا في الفلسفة النيتشيّة وجدنا صفات مخالفة للنموذج التقليدي للخطاب الفلسفي منذ سقراط وأفلاطون»، «الكتابة النيتشيّة والفلسفة»، ورد في *المجلّة التونسية للدراسات الفلسفيّة*، العدد 29/28 دد (عدد مزدوج)، السنة السادسة عشرة، تونس، 2001، ص.65، (صص.65-76).

⁵ - نيتشه، *العلم الجدل*، تقديم، مصدر مذكور، §2، صص.7-8.

أمور الحيات والأزمنة هو عين توازنه وعدم انفعاله. فالفيلسوف المبدع للمفاهيم من قبيل نيتشه لا يفعل للحادث من أمور الفكر والحياة. يتفكره مقدار عنايته بصحته تفكيراً ومعالجة وحيدة. ومع ذلك فهو رحالة في آفاق الأفكار والنصوص وآثار العظماء. وعليه، فهو المعرض على الدوام للاعتلال البدني. فالرابطة بين العضوي (فيزيولوجياً وبيولوجياً) والفكري والنفسي تتفعل ترقياً أو تدهوراً بحسب اقتدارات الفيلسوف على التجاوب مع حالته الصحية. ولكم خبرت العلة نيتشه فما كان غضوباً ولا مريضاً. غير أن المهام الكبرى للفيلسوف «تؤهله» للوقوع في العطب البدني¹ بوصفه كائن طبيعة. ومن يدرى عسى أن تتناسب رفعة الأثر الفلسفي ومدى عمق الشعور بوجع العلة ووزرها. وعسى أن يرى العبقري عظمة أثره في تشكُّله² من بدنٍ لطالما أُنذره الوجع بالهلاك.

عافية الشعب من اعترافه بالفلسفة:

ينطلق نيتشه من التأكيد على «أن الإغريق قد منحوا الفلسفة شرعيتها»³. وتعني الشرعية أن يحظى الفيلسوف بحقه الطبيعي في القول والنظر والتفكير ومحاورة الآخرين على نحو ما يقتضيه «الاستخدام العلني للعقل»⁴ كما قال كُنت في نصّه المتعلّق بالتنوير. ومن علامات الشرعية ألا يختلط دعيّ سياسي بشؤون العلماء والفلاسفة وسائر منتجي المعارف والأفكار والفنون. وعليه، فإن ما يسميه نيتشه بـ«السلطة العليا»⁵ هو الذي يخدم الفلسفة اعترافاً منه بها أو يفسدها تكتيلاً بها وبأهلها.

إن عافية الشعب هي عتبة تعافي الفلسفة. وليست العافية أمراً آخر غير الاستقامة المطلوبة في الإنسان (فرداً أو جماعة). فلقد كان أهل يونان أساساً أصحاء لا تلهيهم صراعات الأفكار وسجال العلماء عن التعايش داخل المدينة الواحدة وخاصةً أثينا. وهكذا يتحدّد موقف نيتشه من الشعب الإغريقي وبشأنه

¹ - غالباً ما يُساق عمالقة الفكر والفن والسياسة والفلسفة إلى عالمٍ وُزِرٍ قد يتوتّر معه التفكير والمزاج... الخ. وهذا ما بيّنه جيل دولوز في قوله: «إنّ صحّة الفنّانين أو الفلاسفة غالباً ما تكون ضعيفة وسريعة العطب، كما أنّ بنيتهم ضعيفة وتوازنهم غير مؤمّن؛ ونذكر هنا سبينوزا ونيتشه ولورنس. لكن ليس الموت هو الذي يحطّمهم، بل الإفراط في الحياة الذي شاهده وعانوه وفكّروا فيه. إنّ الحياة كبيرة جدّاً، لكن عبرهم هم تصبح "العلامة قريبة": نذكر هنا خاتمة زرادشت والكتاب الخامس من (الإتيكا)»، «علامات وأحداث»، مقابلة حوارية مع ريمون بيلور وفرانسوا إوالد، ورد في المجلّة الأدبية الفرنسية، العدد 257، باريس، سبتمبر 1988، تعريب محمد ميلاد، مجلّة العرب والفكر العالمي، العدد 14/13، ددان، بيروت-لبنان/باريس-فرنسا، سبتمبر 1991، صص. 211-212، (صص. 206-219).

² - انظر في هذا المضممار ما قاله جورج زيناتي: «الأصحاء بينون الأهرام»، رحلات داخل الفلسفة الغربية، مرجع مذكور، ص. 114.

³ - نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر مذكور، ص. 45.

⁴ - Kant (Emmanuel) «Qu'est-ce que les Lumières ? Suivi de Que signifie s'orienter dans la», GF, Paris, bibliog. et chron. par F. Proust, notes, int., pensée? trad. J.-F. Poirier et F. Proust p.45, 1991

⁵ - نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر مذكور، ص. 39.

يقول: «لنتَّجِه الآن صوب تلك السُّلطة العليا¹ التي تَقَرَّر ماهية العافية حين نتكلَّم عن شعبٍ ما. فلأَنَّ الإغريق كانوا فعلاً صحاحاً، فإنَّهم منحوا الفلسفة نفسها شرعيَّتها نظراً لأنَّهم تفلسفوا، متخطِّين بذلك جميع الشُّعوب»². وليس يعني ذلك أنَّ رابطة التعافي أحاديَّة البعد، وإنَّما هي من ذات وثاق غليظ متعدِّد المناظر. فهي ذات الرِّابطة المنغرسَة في روحيِّ الشَّعب والفيلسوف. حيث يجد الشَّعب في الفلسفة صدى لاهتماماته مثلما تجد الفلسفة في الشَّعب الذي إليه تنتسب استقبالاً. وهكذا، فلا كدر للفيلسوف من الشَّعب ولا توجُّس للشَّعب من الفيلسوف. فقد كان سقراط يحاور مَنْ أقبلوا عليه بكلِّ عزم ودون أدِيَّة.

أمَّا نيتشه فقد ذهب حدَّ اعتبار الفلسفة قادرة على استرداد عافية شعبٍ ما إن هو افتقدها ووقع في مكيدة سفاسف الأمور فاعتلَّ. وما العلَّة إلَّا حالة المرض الذي يتمكَّن من شعبٍ ما فيقع في الوهن. كأن يُقْبَلَ على أعراض الحياة السياسيَّة ويُدْبَر تجاه جوهرها. أو كأن ينصرف شعب ما إلى الاهتمام بالزَّائف والمصطنع من المواضيع ليحيد عمَّا هو بحاجة إلى الانشغال به حقًّا. وفي تشخيص جنيالوجي له تموقع نيتشه باحثاً عن هالة من الإجلال المتبادل بين الشَّعب والفلسفة. وفي هذا الغرض يتساءل: «أين نقع على مثال لشعبٍ مريض³ استطاعت الفلسفة أن تردَّ له عافيته المفقودة؟ وإذا كان للفلسفة يوماً ما دور في الحماية والخلّاص، فإنَّ هذا الدَّور قد برز بالنسبة إلى شعوبٍ متعافية، لقد ضاعفت الفلسفة دائماً من سوء حالة الشُّعوب المريضة»⁴. وبالنتيجة، يمكن القول إنَّه كلِّما افتقر شعب ما إلى العافية اللاَّزمة إلَّا وتهاوى للسقوط وتصرَّير قطعاناً متطاحنة فيما بينها. وهو ما من شأنه أن يولِّد لدى المعتمدين بخرقَتَي الأيديولوجيا الكاذبة والمناهات الزَّاعمة للجديَّة في نفسها أن يتحوَّلوا إلى مَنْ يسمِّيهم نيتشه أهل «منظوريَّة الضَّفدعة»⁵ وفيهم يقول وعلى نحو ما عهدنا لديه من تهكُّم نقدي: «إنَّ أطباء الشَّعب ينبذون الفلسفة، حتى أضحي من واجب من يبرِّرها أن يبيِّن لنا الغاية التي من أجلها تستعمل أو استعملت الشُّعوب السَّديَّة الفلسفة. وإذا ما نجح في ذلك، فإنَّه يسدي خدمةً للمرضى بالذَّات الذين سيدركون على الأقلِّ لماذا كانت الفلسفة تسبِّب لهم الضَّرر»⁶. فما هو الضَّرر الذي يسبِّبه «أهل الطَّبَّقات العليا»¹ للفلسفة والشَّعب

¹ - بشأن هذه السلط يتوقَّع نيتشه بشيء من الحذر الفلسفي القوي «أنَّ كلَّ الأشكال القديمة للسلطة ستفجر -لأنَّها قائمة كلُّها على الكذب»، Nietzsche، *Ecco Homo (Comment on devient ce que l'on est)*، p.334، §1، op.cit.، un destin

² - نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر مذكور، ص.39.

³ - der Erkrankung eines Volkes

⁴ - نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر مذكور، صص.38-39.

⁵ - نيتشه، ما وراء الخير والشر (تباشير فلسفة للمستقبل)، الفصل الأوَّل: في تحكيمات الفلاسفة، تعريب جيزيلا فالور حجَّار، مراجعة موسى وهبه، دار الفارابي-بيروت والمؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار - بئر مراد رانس/الجزائر، ط.1، 2003، §2، ص.23.

⁶ - نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر مذكور، ص.38.

سُؤى؟ يتمثل ذلك في التكتيل الأيديولوجي بها. حيث يتحامل أولئك على الفلسفة ويحاصرون الفلاسفة خوفاً من سلاحهم النقدي.

أمّا الفلسفة فترهب أقطاب المدينة والشعب ومسارح الصّراعات كلّما اشتغلت على نحو ما تقتضيه الجديّة النّقدية منها في اللحظات الفارقة من التاريخ. ولكم يدين نيتشه الشعوب المريضة والتي هي حقيقةً قد تأدّت بنفسها إلى المرض. فهي غير مالكة لسلطانها القويم وعقلها الرّشيد. فالعديد من الشعوب قد تقع في غفلةٍ من حركيّة التاريخ واستحالاته لتضّرّ بدائرة المعارف والفكر والعلوم. لذلك يتجاسر الفيلسوف على أوضاع الوهن التي يتأدّى إليها شعبه². أمّا عصا الفيلسوف الغليظة فهي حسّه النّقدي وانخراطه الفعلي أحياناً في المراس بغرض الإسهام في استحالات مجتمعيّة ممكنة. لذلك يشدّد نيتشه على حماية العافية الشعبيّة مقدار تشديده على لزوم الجهد من أجل استعادتها إن هي تقهقرت. الفلسفة كتوم أحياناً، ولا ريب. غير أنّنا «إذا أجبرنا الفلسفة على الكلام، فباستطاعتها أن تقول تقريباً ما يلي: "أيّها الشعب النّعيس! أهو خطئي إذا كنت مكرهه على التّجول في بلادك كعرّافة مغامرة، وعلى التّسّير والنّقّع كما لو كنت المتهمة وأنتم قضائي؟"»³.

لطالما عانت الفلسفة من اختزالها في مجرّد إنتاج المعارف النّظريّة كما لو كانت حصراً حقولاً من الابدستمولوجيات المحض. غير أنّ فضيلة بعض الفلاسفة المعاصرين ومنهم نيتشه هو أن استبدلوا ما في هاجس المعرفة النّظريّة من استجابة لفضول العقل بالاعتراف. اعتراف الفلسفة بلزوم خدمتها للشّعب واعتراف الشّعب بلزوم تشريعه للفلسفة. لذلك يتّخذ نيتشه وضعيات عكسيّة عاشتها بعض الشعوب المفكّكة والمتناحرة قبائل ومجموعات فأصاب عزمها الوهن. وهذا ما ننبئنه من خلال توكيده الأمر التاريخي التالي: «إذا تقنّت شعب ما وتراخت العلاقات التي كانت تشدّ أفرادهم بعضهم إلى بعض، فإنّ الفلسفة لم تجده نفعاً في إعادة لحمه أفراد هذا الشّعب وشدهم إلى مجموع الأُمّة. وكلّما سعى فردٌ ما إلى الاكتفاء الذاتي كانت الفلسفة جاهزة دائماً لمضاعفة عزلته ولتحطيمه داخل هذه العزلة. إنّ الفلسفة لخطيرة حين لا تكون مالكة لجميع حقوقها، وهذه الشرعيّة لا تمنحها إيّاها إلّا عافية الشّعب⁴، ولكن ليس مطلق

¹ - انظر في هذا الغرض ما كتبه نيتشه في: *OPC, Fragments posthumes (Été 1869-Printemps 1872)* ، in *OPC, Fragments posthumes (Été 1869-Printemps 1872)* ، §7، 2008، Philippe LACOUÉ-LABARTHE et Jean-Luc NANCY، trad. Michel HAAR، I* pp.430-431.

² - يذهب زرادشت نيتشه حدّ تصويب ما يقع فيه شعبه من خطإ جسيم وخاصّة بشأن المقولات السياسية السائدة وقد أسندها أهل الحقوق من فاسد التشريعات ما أسندوا. وعليه، يرى زرادشت «ما حسبه الشعب في كلّ زمان روحاً للعدل إنّما هو العدو الكامن المترصّد لروح الحرية يستنبح عليه أشدّ كلابه افتراساً»، نيتشه، *هكذا تكلم زرادشت*، ج.2، تعريب جديد كامل لفليكس فارس، منشورات المكتب العالمي للطباعة والنّشر، بيروت، ص.122. (د.ت.).

³ - نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر مذكور، صص.45-46.

⁴ - die Gesundheit eines Volkes

شعب»¹. غير أنَّ ما نلاحظه في قراءة نيتشه لعافيتي الشعب والفلسفة هو أنَّ رابطة أولية تجمع بينهما وهي «الدم»: جديرة بالجدية في النظر والإجلال.

ففي مصائر الشعوب ومآلات التفلسف بشأن همومها ثمّة مواطن حيّة وبها حيوات روح الشعب وروح الفيلسوف ورابطة الدم النَّاشئة بينهما هي تلك العقلانيّة المتنوّرة والمستندة إلى ما يسمّيه نيتشه «العقل الحر». فضلاً عن كونها الفكرة البسيطة وذات الوهج. فكرة يصدرها الفيلسوف حين يراهن على مستطاع النّقاها. وبشأن تلك الرّابطة الدميّة بين ألق الفلسفة وتعافي الشعب يقول: «كلّ مجتمع هو مجتمع دم. وليس هذا الأخير فطريّاً وحسب، وإنّما هو مكتسب أيضاً»². في الواقع، كثيراً ما يتحدّث نيتشه عن الدم للكتابة وللقرابة أو حتى في تحديد الأنساب أو متى تعلّق الأمر بالحمية الوطنية. بل، وحتى عن حضور الدم في حقل الأفكار الكبرى والتي هي مغاور للنظر ومحاوّر للتفصيل حياتياً تحتاج إلى التعاطي معها بالدم وخاصّة المتعلّقة منها بأداء الإنسان المعاصر (الفلسفي منه والعامي).

وطنية الدولة من عافيتها:

يرى نيتشه أنَّ الحياة لدى أهل يونان كانت أرحب ممّا ستؤول إليه مؤدّيات التاريخ اللاحق بوصفه تاريخاً ينحو وجهة انحطاط. لقد كانت الحياة في حضن المجتمعات الوطنيّة المتعافية تسع الجميع ووفقاً لاحترام بنية الحياة المجتمعيّة اليونانيّة ومراتبها. أمّا المدينة فهي مجال لحيوات سياسيّة وفكريّة وفنيّة متنوّعة. فكلّ من له نسب بالمدينة يتموّل في أفقه الخاص ومتتافاً مع نظرائه ومواطنيه في شؤون المدينة وسياستها حدّ بلوغ المقدرة على ابتكار الفكرة والنّظرية (كوسمولوجيّة، أنطولوجيّة، ميتافيزيقية، فيزيائية... الخ). وفي هكذا سياق يذكّر بعقريّة الشعب المتعافي قائلاً: «لقد كان في مقدور يونانيّ فقط أن يبتكر هكذا تصوّر ليجعل منه أساساً لنظرية في الكون. إنّها ايريس³ هيزيود الطّيبية مُصاغة كمبدإ كوني، إنّها تصوّر المجادلة الخاص بالإنسان اليوناني وبالمدينة اليونانيّة. إنّ أصل هذا التّصوّر يرجع إلى مؤسسات وملاعب الرّياضة البدنيّة، إلى المجادلات الفنيّة، وإلى صراعات الأحزاب السياسيّة والمدن، وهو تصوّر مرفوع إلى أرقى درجات العموميّة إلى حدّ أنّه أصبح يشكّل العنصر الذي يتحرّك داخله محور العالم»⁴. أمّا في ما يتعلّق بنسبة نيتشه إلى وطنه ألمانيا فقد بادر بالمساهمة في الحرب الألمانيّة-الفرنسيّة لسنة 1870 واستخلص منها إعداد دولٍ أوروبية لحروبٍ مقبلة⁵. فمتى كانت الدولة متعالية⁶ على الشعب بما

¹ - نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر مذكور، ص.39.

² - trad. Pierre ، XIII، in OPC،Fragments posthumes (Automne 1887-mars 1888)

p.297، 11[292]، 2006،KLOSSOWSKI et Henri-Alexis BAATSCH

Eris -³

⁴ - نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر مذكور، ص.57.

⁵ - توقّع نيتشه مآلات حضارية تنذر بالهلاك لقوله: «ستتمّ حروب كما لو لم يكن لها إطلاقاً من مثيل على الأرض. إنّها

انطلاقاً منّي أنا فقط ستكون ثمّة على الأرض سياسة كبرى»، Ecco Homo (Comment on devient ce que l'on

هي عليه من جورِ الحُكَّام واستبداد المؤسسات وتخريب المهرجين من بعض رجال السياسة والمستثمرين من بعض رجال القضاء²، إلّا وآلت إلى آلة ضابطة للشعب قامعة له فضاغطة على نفسه وفكره. والحال أنّ الرأى القويم يفيد بنظر نيتشه أن تكون الدولة على أنتم جاهزية لخدمة شعبها. إذ منه تكون استقامتها فعافيتها. غير أنّ الدولة المعاصرة منذ منتصف القرن التاسع عشر تكون أكثر ميلاً إمّا لاستعمار الآخر في الخارج أو للتسلط على مواطني الداخل لتحوّلهم إلى مجرد رعايا لدى الحاكم الرأعي.

وإذا كان من المفترض في نظر الفلسفة السياسية النيتشوية³ أن تتحلّل الدولة من أغلال فسادها وأوهام البعض من رجالاتها، فإنّ الواقع المعيش للدولة المعاصرة يُبين استدامتها في عقلنة العلل والمهالك حتى وإن حذر أهل الحصافة بالعقل النقدي والفكرة السليمة إلى مخاطر كائنة وأو محتملة مقبلاً. وبروح وطنية ملتزمة بأرضها التي هي منبتها يقول نيتشه: «بالعكس من ذلك نريد الآن تعليم الناس -وتبعاً لمبدأ صادر كما هو عن الذهن وحده، ولا يزال عليه أن يشقّ طريقه في التاريخ- أنّ الدولة ليست إلّا أداة

(est) Pourquoi je suis un destin. op.cit.، §1، p.334. انظر بالخصوص في ذات السياق ما تناوله نيتشه في: *Humain trop humain (Un livre pour esprits libres) 1*، op.cit.، VIII : Coup d'œil sur l'État، pp.290-291، §481

¹ - يقرّ نيتشه بالتعارض بين إمكان العبقريّة واستبداد الدولة -التتين المعتمدة في ذاتها المثالية: «فعندما تتحقّق تلك الدولة، تكون الإنسانية قد أصبحت أكثر خملاً من أن تنجب العبقريّة»، نفس المصدر، §235، ص.183.

² - بالنسبة إلى ما يمكن أن تكون عليه السلطة القضائية من تحيز، انظر أنجيل كريم -ماريتي حيث نقول في نصّ لها: «يصحّ القول إنّ نيتشه حسّاس للمقلبات العينية الضارّة بالتأويلات القضائية المقترنة بآليات السطوة. هكذا، يصف نيتشه حديثاً منقلب عين نسميه تحوُّلاً: فال مسار المجازي الذي يُنظر بمقتضاه لمانع الخيرات المادية في آن، بقرار الأكثر قوّة - وتساوفاً مع تجميع الأفكار -، باعتباره غير جدير بالثقة وبالتالي كاذب»، *La raison créatrice (Moderne ou postmoderne)*، Paris، éd. Kimé، 1996، p.42.

³ - فيما يتعلّق بالسياسة عند نيتشه فهو صاحب نظرية نقدية للسائد في الفضاء الأوروبي المعاصر له ومؤسساً في آن لنظرية السياسة الكبرى. وربما يُعزى عدم دراية البعض أو نكرانهم لنظرية سياسية نيتشوية إلى أنّ معظم عناصر نظريته وردت متأثرة في كتاباته. وفي هذا السياق يتساءل لاشوسيه: «هل يمكن توصيف الفيلسوف فريدريك نيتشه بالمفكر السياسي؟ ((...)). إلّا أنّ مكانته ضمن المفكرين السياسيين مؤكّدة، ليس فقط بسبب ملامحة حكمه بشأن الحداثة الناشئة، وإنّما أيضاً بفعل جذرية أسلوبه ونظرته النقدية للموروث الثقافي لأوروبا»، *D'une Lachaussee (Ingeburg) in Nietzsche et les hiérarchies* (ouvrage، hiérarchie à l'autre : Nietzsche et la politique) coll. Commentaires philosophiques، Paris، Harmattan، 2008، p.65.

⁴ - لمزيد التعمّق يمكن العودة إلى ما طرحه أندري كلار في هذا الخصوص: «هكذا يفعل العنيف، المقتدر، أوّل مؤسس للدولة والذي يُخضع الضعفاء. بيده الحقوق، مثلاً اتخذتها الدولة أيضاً في أيّامنا هذه؛ أو بالأحرى ليس هنالك حق بإمكانه درء ذلك. وإنّ أرضية للأخلاقيّة لا يمكنها أن تُعدّ إلّا منذ لحظة إخضاع الأفراد من قبل شخصية كبرى أو شخصية جماعية، من قبيل المجتمع والدولة، أي تنتزعهم من عزلتهم وتتطّهم في تجمّع»، *Éthique et humanisme (Essai sur la modernité)*، op.cit.، p.145.

للشعب، وليست شيئاً عالياً، رشيداً، مبدلاً، قياساً بشيء هو أدنى قد أَلَفَ الضَّعة والانحطاط»¹. فما هي مآلات الضغط السياسي للدولة في الداخل وميلها إلى التبعية في الخارج؟ وهل من مسوِّغ للحديث عن وطنيَّة ممكنة لهكذا دولة؟

ففضلاً عن مناهضته أحياناً لتصورات بعض الاشتراكيين²، لاحظ نيتشه منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر تباشير استعلاء بعض الدول المعاصرة على شعوبها وتسَلُّطها عليها حدَّ الاسترقاق المفزع. ويُعزى انفصال الدولة عن شعبها إلى عدَّة علل، لعلَّ أهمُّها:

أولاً، نقصان الصرامة في الرُّوح الوطنيَّة لدى معظم رجالها وميلهم إلى حصر رهان الصِّراعات السياسيَّة في التوقع.

ثانياً، الجشع لدى بعض رجال الدولة والرَّغبة في المغنم وهو ما يترتَّب عنه الكثير من الفساد الإداري والمالي، فتقصُّ قيمي من المسؤوليَّة³.

ثالثاً، الوقوع في التبعية الاقتصادية-السياسيَّة مع الخارج. فقد تُساق بعض الدول إلى هذه التبعية لقلَّة حيلتها في التدبير وتصريف شؤونها المجتمعيَّة العامَّة. وقد تُبادر بعض الدول الأخرى أحياناً إلى الاتجار بشعبها لتجعل منه رهن املاءات الخارج.

وفي كلِّ هذه الحالات تضعف الرُّوح الوطنيَّة وتخفت حماسها لدى رجال الدولة وحتى لدى بعض الشرائح الاجتماعية. يدين نيتشه «التَّفَرُّق بين الدولة والشَّعب، كما لو كانا يمثلان مجالين منفصلين من مجالات القوى، يتعامل أحدهما، وهو الأقوى والأرفع، ويتَّحد مع الآخر، وهو الأضعف والأحطّ - هذه التَّفَرُّق هي جزء من فهم سياسي موروث، لا يزال يمثِّل النظرة التاريخيَّة الثَّابتة للعلاقات بين القوى في معظم الدول تمثيلاً صادقاً»⁴. كان المستثمرون السياسيون في كلِّ العصور يستفيدون من وضع الدولة والشَّعب في موضع العدوين الخصيمين.

¹ - Nietzsche، *Humain*، 1، (Un livre pour esprits libres) trop humain، op.cit.، §450، p.269.

² - إنَّ البحث عن إشباع الحاجة هو الدَّافع إلى استلهاً الاشتراكية. ولكنَّ، الإنسان من طبعه أنَّه لا يرضى بحال، إذ كلُّما أشبع حاجة إلاَّ وبرزت لديه الرَّغبة في حاجات جديدة. فقد «كان له، مثلاً، اعتراض على الاشتراكيين الذين آمنوا بأنَّه يمكن خلق ظروف وتركيبات اجتماعية تستطيع وضع حدَّ لكلِّ الشُّرور والأمراض واللبغاء والفقر»، لافرين، نيتشه، مرجع مذكور، ص.138.

³ - ولعلَّه من شأن هذا السلوك السياسي الوضع أن يجعل من صورة الدولة هابطة. وهو ما يفيد أنَّ النَّظرة إلى القوَّة اللّازمة في الدولة قد غدت دونية. فكلُّما استهان رجل السياسة بحقِّ الدولة في الظُّهور بمظهر القوي إلاَّ وتأدَّى بها إلى الضعة والمهانة. لذلك يشدّد أندري كلار على وثاق الرابطة بين الدولة والقوَّة قائلاً: «لا توجد مسافة فصل بين القوَّة والدولة. إنَّ الدولة محايثة للقوَّة التي بها ازدهرت مباشرة ودونما تحفُّظ. إنَّ السيِّد المقاتل خالق الدولة وسيكون عضواً في الفئة الأكثر أقلّيَّة من الأرستقراطيَّة الاجتماعية»، Clair، *Éthique et humanisme (Essai sur la modernité)*، op.cit.، p.145.

⁴ - Nietzsche، *Humain*، 1، (Un livre pour esprits libres) trop humain، op.cit.، §450، p.269.

غير أن نتائج وطنية إيجابية يرى نيتشه إمكان حدوثها في شخوص رجال بلغت الدولة معهم وبضدّهم من الاستبداد بشعبها والتعالي عليه حدّ نفاد صبر معظم الشرائح الاجتماعية وخاصة منها المعدّمة والمسكونة بحبّ وطنها. وهنا تحصل، في المقابل، مصائر تتأدّى بالكلّ إلى مناهضة السياسة المعتلّة للدولة والتفكير في ما يسمّيه نيتشه «السياسة الكبرى»¹. فالشعب سيثور على السياسة القائمة وينحو باتجاه إعادة تأسيس دولة وطنية متعافية من علل أوهنت عزمها وعزم العديد من مواطنيها. وفي هذا السياق يقول: «لنفرض جدلاً أن رجل دولة يزعج بشعبه في وضع يفرض عليه أن لا يعود يمارس إلاّ "سياسة كبيرة"»². فالشعب يحتاج إلى تثبيت لحقوقه في معيشه السياسي والاجتماعي والقيمي... الخ. غير أن واقع الحال، يُبين في المقابل³، أن دائرة الحقوق تتسع قياساً وتنامي الضعف والعدميّة أو القوّة والثبات. وأنّ الحقوق ترتبط هي الأخرى، بالافتقار لدى الأسياد⁴. ولقد ظهرت مقولات الدّين والخطأ أساساً في المجال الحقوقي.

ليس كما قد يبدو للبعض أن الفلسفة مستقيلة من النّظر في الشّأن العام وهموم النّاس المجتمعيّة. ففي الواقع، معظم الفلاسفة الذين أوتوا من الحكمة العقلانيّة كفاية هم ممّن يحملون هاجس حبّ الأرض والوطن. وعليه، يتوجّه نيتشه في هذا المقام بالنّقد إلى جنسٍ مخصوص من رجال الدولة، فيقول: «لنفرض أن رجل دولة كهذا يذكّي همم شعبه ويوقظ أطماعه المطمورة ويعيّر بخفه السّابق واستطابته للحياة، ويجعل من حبه للغريب ولاتناهي الخفي ذنباً، ويسقط القيمة عن أحرّ ميوله ويقلب ضميره ويضيّق

¹ - نيتشه، ما وراء الخير والشر (تباشير فلسفة للمستقبل)، الفصل الثامن: أقوام وأوطان، مصدر مذكور، §241، ص.213. انظر ما ذهب إليه جيل دولوز في قراءة لنيتشه. حيث يقول: «هل هذه هي السياسة الكبرى المبشّر بها؟ يلاحظ نيتشه أنه لم يكن هنالك إلى الآن من "سياسة كبرى"»، نيتشه والفلسفة، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ط.1، بيروت، 1993، ص.115.

² - نفس المصدر ونفس الصّفحة. انظر أيضاً تحديد أنجيل كريمر-ماريتي لما يُطلق عليه نيتشه السياسة الكبرى في قولها: «بالنسبة إلى نيتشه، في الحقيقة، لا توجد سياسة أخرى غير هذه السياسة الكبرى التي هي بالأحرى حكومة الأرض والتي ليس لدينا بشأنها مبادئ جاهزة»، *Thèmes et structures dans l'œuvre de Kremer-Marietti (Angèle)*, Paris, Série Les cahiers des lettres modernes, n°2, coll. Thèmes et structures, Nietzsche, p.75, 1957.

³ - انظر ما ذهب إليه أندري كلار في هذا السياق وخاصة في قوله: «إنّ الحقوق من عمل الأقوياء»، *Éthique*, Clair, op.cit., et humanisme (Essai sur la modernité), p.143.

⁴ - يضيف أندري كلار القول: «والقانون إثبات للاقتدار»، نفس المرجع، ص.143. وليس يقوى على تثبيت اقتداره أي امرئ كان، بل يتعلّق الأمر في ما ذهب إليه نيتشه بقلّة من النّاس وهم من معدنٍ خاصّ ولا يكثرثون بكبرى مقولات السياسة الليبراليّة المعاصرة والموهمة للمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات وأمام القانون. وفي هذا الغرض يدعم نيتشه فكرة التفرّد ولزوم تحصينها من بلاهة السياسيين الجماهيرية، فيقول: «كلّما سمحنا للفرد المتفرّد بأن يرفع رأسه، كلّما نسينا عقيدة "المساواة بين البشر"»، *العلم الجنل*، مصدر مذكور، §1208، ص.115.

روحه ويجعل ذوقه "وطنيًا"¹. فالمُدان هنا سياسيًا وبخاصة في نظر نيتشه هو رجل الدولة المتحجّب بمقولة التعاقد الاجتماعي² والعامل حقيقة في حقل السياسة على «إخضاع الضعفاء ومشاعرهم الإرتكاسية»³.

روح الوطنية عند الفيلسوف

ينتسب الفيلسوف بالتأكيد إلى مجتمع ما. فمنه فكره ومصيره واستحالاته النظرية والحياتية. وليس الفيلسوف مجرد بهرج للفكر المجرد غير المتمسّ لقضايا أرضه وبلده ووطنه. فهو وإن كان يلود بالصمت غالبًا، فإنّه قلّمًا يغفل عمّا يتطلّع إليه من رفعة بلده ورهانات مجتمعه وشعبه. فهو المنتمي حقًا إلى حقلٍ سياسي واجتماعي واقتصادي وعقائدي وثقافي... وما يعتمل بداخل هذه العناصر من علاقات انتظام داخلي. ذلك أنّ سعادة الفيلسوف من تعافي وطنه وشقاوته من اعتلاله. ولا يشدّ نيتشه عن هذه القاعدة لاعتباره أنّ «الفيلسوف يحمي ويدافع عن وطنه. في حين نرى، منذ أفلاطون، أنّ الفيلسوف قد نُفي وراح يتأمر ضدّ وطنه»⁴. وليس يعترض الفيلسوف دومًا على عظماء بلده وخدام وطنه الحقيقيين كما قد يُعتقد خطأ. إذ ليس همّ الفيلسوف أن يعترض جزافًا. فثمة في معظم الأرضين والأوطان أناس لهم من رفعة الفكر وشدة العزم ما يستأهلون به الوطنية والحرية. وعليه، فإنّ الثناء عليهم موجب لعرفان الفيلسوف لهم بالفضل على شعوبهم. ففي عنوان فرعيّ من كتابه ما وراء الخير والشرّ يكتب نيتشه عن بسمارك موحد مقاطعات بروسيا وجاعلها تحت راية ألمانيا الوطنية، ما يلي: «بسمارك: لنا أيضًا، نحن الأوروبيين الصالحين»، ساعات نسمح لأنفسنا فيها بقوقعة وطنية دسمة، بسقطّة ونكسة نتقهقر بنا إلى أهواء وزوايا ضيقة قديمة -وقد عرضت للتوّ مثلاً لها- ساعات من الفورات القومية والهواجس الوطنية وإلى ما هنالك من فيضانات عاطفية بالية»⁵. وكثيرا ما أبان نيتشه عن عرفانه بالفضل السياسي لبسمارك على وحدة ألمانيا وحماية مقاطعاتها.

أمّا أنّ البلاد الأوروبية في القرن التاسع عشر ما عادت تروق لنيتشه، فإنّ علّة ذلك هو التتكرّر لمستطاع الذات المتفلسفة بروح جادة. لقد كان نيتشه على حذرٍ ودراية من أنّ ضلالاً سياسية كبرى

¹- نيتشه، ما وراء الخير والشرّ (تباشير فلسفة للمستقبل)، الفصل الثامن: أقوام وأوطان، مصدر مذكور، §241، ص.214.

²- فحتى مقولات التعاقد الاجتماعي نطالها ريبة النّقد الفلسفي السياسي مع نيتشه. ولذلك، «إذا أمكننا الحديث عن شكل من التعاقدية الاجتماعية، فإنّه على قاعدة رفضٍ لكلّ تعاقدية سياسية. إنّ الدولة سابقة للجمعية إنّها وسيلتها الصّلبة والقاسية، وأداتها لترويض الشعب»، Clair، *Éthique et humanisme (Essai sur la modernité)*، op.cit.، p.146.

³- نفس المرجع، ص.143.

⁴- نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، مصدر مذكور، ص.44.

⁵- نيتشه، ما وراء الخير والشرّ (تباشير فلسفة للمستقبل)، الفصل الثامن: أقوام وأوطان، مصدر مذكور، §241، صص.212-213.

وكثيرة تحول أحياناً دون تطلّعات روح الفيلسوف في طلبه الرفعة الموجبة لمهابة الشَّعب والوطن والدَّولة والأرض. ذلك أنَّ حائلاً من هذا القبيل من شأنه أن يثير فيه القنوط من وطنٍ تسوسه أكثر النَّاس جهالةً وسفالةً وينظرُ له غير أهل الكياسة في النَّظر والقول والفعل وكل من افتقر إلى الحصافة العقلية¹ غير أنَّ فضيلة النَّقد الفلسفي توجب على نيتشه ألاَّ يتقلَّت من رماديَّة الصُّورة الجامعة لعلاقة الفيلسوف بمتاهات السَّاسة الرَّاعمين للوطنية. لذلك يعترف أنَّه «بعد كلِّ هذا التَّحقيق مع الدَّات، وهذا الإغراء للدَّات، نتعلَّم بأن نعيد النَّظر بشكلٍ أكثر حدَّة مع كلِّ ما تمَّت فلسفته حتى الآن: نحذر أفضل من قبل، ضلال وألعيب وأنواع المصاييف وزوايا الفكر المشمسة، حيث لم يُترك الفلاسفة أنفسهم ينفادون ويُفتنون، بالرَّغم منهم، إلاَّ لكونهم كانوا مرضى»². ولعلَّ ما يميِّز هذه النَّظرة هو اقتران روح الوطنية لدى الفيلسوف بالتزامه النَّقدي وعزمه على الفرز بين السياسة الوطنية الحق التي يطرحها أهل النَّظر وأهل الفعل³ وبين السياسة التي هي في نشاز مع رهانات الوطن والروح الوطنية. وفي المقابل، يقدِّم لنا نموذجاً من صورة كان عليها الشعب الألماني، فيقول: «تعدُّدية النَّفس الألمانية: مضى زمن جرت فيه العادة على مدح الألمان وتسميتهم شعباً "عميقاً": أمَّا وإنَّ أنجح طرازٍ للشخصية الألمانية الجديدة يستमित الآن في سبيل أمجادٍ مغايرة كلياً أو يعيب على كلِّ عميقٍ افتقاره إلى "المروءة"، فإنَّه كان من الملائم للعصر والروح الوطني أن يتساءل المرء ما إذا لم يكن ذلك المدح السَّابق انخداعاً؟»⁴. ومن موجبات الحس الوطني لدى الفيلسوف نذكر أمرين اثنيين:

أولاً، مراس القسوة في سبيل الدَّفْع بالشَّعب إلى خوض صراع حقٍّ عسى أن يستحيل أهلاً للحرية والكرامة فالعافية. ها هنا نجده يحدِّد مآلات القسوة، فمصائر المحبَّة النَّاشئة بين الفيلسوف وشعبه. وفي ذلك يقول: «ليس ثمة ما هو أقلُّ معافاة، داخل حدثنا القليلة الصَّحَّة، من الشَّقَّة المسيحية. إنَّه شأننا أن نصبح هنا أطباء، ذوي قلوب لا ترحم، وأن نستخدم السَّكين. إنَّ هذه هي خصوصيتنا، وهذه هي طريقتنا في محبَّة البشر، وبها نكون فلاسفة، نحن الشَّماليين»⁵. ففي هذا المقطع تتوضَّح خيارات نيتشه الاتيقية والتي هي من مفترضات وصال الشَّعب مع الفيلسوف على النَّحو الخادم لتاريخيهما.

¹ - من بين هؤلاء يدين نيتشه «البحاثنة البروليتاريين» (Nietzsche، *Études*، Le livre du philosophe (théorétiques)، op.cit.، II. Le philosophe comme médecin de la civilisation، §175، p.114.

² - نيتشه، *العلم الجدل، تقديم، مصدر مذكور*، §2، ص.8.

³ - بشأن هذا الغرض نجد نيتشه يوصي بأنَّه «ينبغي على الإنسان أن يتعلَّم الفعل كما يمارس الجندي التَّدريب»، trad. Jean-، XIV، in OPC، *Fragments posthumes (Début 1888-début janvier 1889)*، Nietzsche، p.80، 14[111]، 2008، Claude HÉMERY

⁴ - نيتشه، ما وراء الخير والشر (تباشير فلسفة للمستقبل)، الفصل الثَّامن: أقوام وأوطان، مصدر مذكور، §244، ص.216.

⁵ - نيتشه، *عدو المسيح*، مصدر مذكور، §7، ص.34.

ثانيًا، إجلال الشعب تبعًا لمبادرة من الفيلسوف برفع روح الشعور بالعزة الوطنية والانتماء إلى أرض هي له بالأصالة. فيعيد التذكير بما هي عليه ألمانيا القرن التاسع عشر، قائلًا: «مهما كان شأن العمق الألماني (وقد نسمح بيننا لأنفسنا بالضحك منه) فإنه من الأولى بنا أن نطلّ نجلّ ظاهره وصيته الحسن وأن لا نتنازل، بثمان زهيد، عن سمعتنا القديمة، سمعة الشعب العميق، مقابل "المروءة" البروسية أو رمل برلين وظرفها»¹. تلك هي الصورة المكتنزة لأنفاس الوطنية. فلا ييخل بها نيتشه ولا غيره من الفلاسفة الذين نبتوا في حضن أراضيهم وأوطانهم، فيعترفون لبلدانهم بالنسب الحق والانتماء الموجب لخدمتها.

خاتمة:

في المحصلة، نستنتج أنّ الفلسفة لا تكن كراهة للوطن أو الشعب الذين منها منبتها وعافيتها. ولعلّ هذا ما حدا بلوران شارلونيكس إلى القول: «يطلّ نيتشه فيلسوف العافية والعلّة»². فهو المدبر لكيفيات تعافي الوطن والشعب والعامل على نفس أسباب علّتيهما. وبالنتيجة، لا يتعلّق الأمر في ما نحن بسبيله من توثين للفيلسوف نيتشه، وإنّما نلاحظ أنّ لديه من الأفكار ما يمكن الغنم منها لتشيديها على حميميّة الرابطة بين ما يتفكره الفيلسوف الكيس بشأن شعبه ودولته ووطنه وما نحن عليه في راهنا من رماديّة تجعل من العين غائمة أحيانًا تجاه العقلانيات المغشوشة سياسيًا وما تبعها من ادعاءات للوطنية الهشة. فضلًا عن تدبير الحروب المعاصرة للعقول الخرقاء المراهنة على سياسات الدمار³. فمن مهام الفيلسوف الترفع عمّا يقع فيه أهل الصراعات من وفرة المراهنين على الخسارة المدنية والوطنية الأكبر بدل العافية الشعبية والسياسية الأوفر. وقد حدّد نيتشه نسبة الفيلسوف إلى شعبه بالقول: «حينما نكتشف علاقة بين فيلسوف وشعبٍ ما، فتلكم أغراض الطّبيعة، وذلك حدّ الفيلسوف الذي اكتشفناه»⁴. وفي هذا المقام الأخير، جدير بنا التذكير بما كثر الحديث عنه من سوء استثمار نيتشه سياسيًا من قبل نزعات شوفينية⁵ هو في الحقيقة براء منها. والحال أنّ وظيفة الفيلسوف الوطنيّة باتت مثبتة بالتأكيد. فليست وظيفة الفيلسوف مناوئة بلده ووطنه.

¹ - نيتشه، ما وراء الخير والشر (تباشير فلسفة للمستقبل)، الفصل الثامن: أقوام وأوطان، مصدر مذكور، §244، صص. 219-220.

² - Nietzsche (Santé et maladie، Cherlonneix)، op.cit.، p.165.

³ - من بين ما توقّعه نيتشه أنّ «فكرة السياسة ستصير، إذا بتمامها متجسّدة في حرب العقول»، Nietzsche، Ecco، §1، op.cit.، p.334.

⁴ - Nietzsche، Fragments posthumes (Été 1872-Hiver 1873-1874)، trad. Pierre، II*، in OPC، p.444، 29[218]، 1990، RUSCH.

⁵ - عبّر نيتشه في أكثر من نصّ عن محبّته لألمانيا وخاصة في اللحظات التي نقدها. كما أنّ كراهته للتعصّب السياسي لدى بعض القوميين تفيد أنّه براء من تهمة الانغلاق الشوفيني. وبالتالي، «نجد في النهاية أيضًا نقدًا للسياسة عند نيتشه.

جريدة المصادر والمراجع

باللّسان العربي

مصادر (نينتشة)

إنسان مفرد في إنسانيته (كتاب العقول الحرّة)، ج.1، تعريب محمّد النّاجي، إفريقيا الشّرق، بيروت-لبنان/الدار البيضاء-المغرب، 1998.

عدو المسيح، تعريب جورج ميخائيل ديب، دار الحوار، ط.1، اللاذقيّة، 2004.

العلم الجدل، تعريب سعاد حرب، طباعة دار المنتخب العربي للدراسات والنّشر والتّوزيع، توزيع المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، ط.1، بيروت، 2001.

الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تقديم ميشال فوكو، تعريب سهيل القش، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، ط.2، بيروت، 1983.

ما وراء الخير والشرّ (تباشير فلسفة للمستقبل)، تعريب جيزيلا فالور حجّار، مراجعة موسى وهبه، دار الفارابي-بيروت والمؤسّسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار - بئر مراد رانس/الجزائر، ط.1، 2003.

هكذا تكلم زرادشت، تعريب جديد كامل لفليكس فارس، منشورات المكتب العالمي للطباعة والنّشر، بيروت، ص.122. (د.ت.).

مراجع:

أوديف (ستييان)، على دروب زرادشت، تعريب فؤاد أيّوب، دار دمشق، ط.1، دمشق/بيروت، 1983.
بدوي (عبد الرّحمان)، نينتشة، وكالة المطبوعات، مجموعة خلاصة الفكر الأوروبي، سلسلة الفلسفة، ط.5، الكويت، 1970.

دولوز (جيل)، «علامات وأحداث»، مقابلة حوارية مع ريمون بيلور وفرانسوا إوالد، ورد في المجلّة الأدبية الفرنسية، العدد 257، باريس، سبتمبر 1988، تعريب محمد ميلاد، مجلّة العرب والفكر العالمي، العدد 13/14، ددان، بيروت-لبنان/باريس-فرنسا، سبتمبر 1991، (صص.206-219).

--، نينتشة والفلسفة، تعريب أسامة الحاج، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، ط.1، بيروت، 1993.
زيناتي (جورج)، رحلات داخل الفلسفة الغربيّة، دار المنتخب العربي للدراسات والنّشر والتّوزيع، توزيع المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، ط.1، بيروت، 1993.

العتيري عزّوز (رجاء): «الكتابة النيتشويّة والفلسفة»، ورد في المجلّة التونسيّة للدراسات الفلسفيّة، العدد 28/29، (عدد مزدوج)، السنة السادسة عشرة، تونس، 2001، (صص.65-76).

فنك (أويغن)، فلسفة نينتشة، تعريب إلياس بدوي، منشورات وزارة النّقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974.
لافرين (بانكو)، نينتشة، تعريب جورج جحا، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر، بيروت، 1973.

باللّسان الأعجمي

مصادر (نينتشة)

((...)). فاستعمال تفكيره من قبل الاشتراكية القومية هو واقعياً نصّب: حطّ من مفاهيم العرق والاصطفاء. ((...)). ابتذال

لكبرى المحاور النيتشوية التي أصبحت شعاراً في متناول الجموع، القطيع»، (Nietzsche critique، Reboul (Olivier)،

de Kant، PUF، col. SUP، 1^{ère} éd.، Paris، 1974، p.157.

, VIII, in OPC, *Crépuscule des Idoles ou (Comment philosopher à coups de marteau)*
 , 5 juillet 2004, impression à Plessis-Tréville, trad. de l'allemand par Jean-Claude HÉMERY
 textes et variantes établis par Giorgio COLLI et , (in *Œuvres philosophiques complètes*
 nouv. , s. la dir. de Gilles DELEUZE et Maurice De GANDILLAC, Mazzino MONTINARI
 18 vol.), , en 14 t., 1982-2008, Paris, éd. chez Gall./nrf
 trad. Jean-Claude , VIII, in OPC, *Ecco Homo (Comment on devient ce que l'on est)*
 2004., HÉMERY
 , trad. Michel HAAR, I*, in OPC, *Fragments posthumes (Été 1869-Printemps 1872)*
 2008., Philippe LACOUÉ-LABARTHE et Jean-Luc NANCY
 , trad. Pierre RUSCH, II*, in OPC, *Fragments posthumes (Été 1872-Hiver 1873-1874)*
 1990.
 trad. Pierre , XIII, in OPC, *Fragments posthumes (Automne 1887-mars 1888)*
 2006., KLOSSOWSKI et Henri-Alexis BAATSCH
 trad. Jean-, XIV, in OPC, *Fragments posthumes (Début 1888-début janvier 1889)*
 2008., Claude HÉMERY
 (Kritische Studienausgabe , KSA3, in *Sämtliche Werke, Die fröhliche Wissenschaft*
 Deutscher , in 15 Einzelbänden), Herausgegeben von Giorgio Colli und Mazzino Montinari
 November 1988., Berlin/New York, Taschenbuch Verlag de Gruyter
 trad. de l'allemand par Pierre , V, in OPC, *Le Gai savoir (La Gaya Scienza)*
 impression à Plessis-, éd. revue et augmentée par Marc B. DE LAUNAY, KLOSSOWSKI
 2 février 2006., Tréville
 trad. , vol.1, t.III, in OPC, *trop humain (Un livre pour esprits libres) 1, Humain*
 1988., éd. revue par Marc B. DE LAUNAY, Robert ROVINI
 (mi-juillet 1881), *Lettre à sa mère, Lettres choisies*
 II. Le philosophe comme médecin de la , *Le livre du philosophe (Études théorétiques)*
 1991., Paris, G.F., int. et notes par Angèle KREMER-MARIETTI, trad., civilisation
 trad. , VIII, in OPC, épilogue 1, *Nietzsche contre Wagner (Dossier d'un psychologue)*
 2004., Jean-Claude HÉMERY
 trad. de l'allemand par Jean-, vol.2, t.1, *La philosophie à l'époque tragique des Grecs*
 20 novembre 1975., Michel HAAR et Marc B. DE LAUNAY, Louis BACKES
Nachgelassene Schriften (1870-, Die Philosophie im tragischen Zeitalter der Griechen
 (Kritische Studienausgabe Herausgegeben von Giorgio , KSA1, in *Sämtliche Werke, 1873)*
 Deutscher Taschenbuch Verlag de , in 15 Einzelbänden), Colli und Mazzino Montinari
 November 1988., Berlin/New York, Gruyter

مراجع

coll. « L'Harmattan, *l'art* », *Nietzsche (Santé et maladie)*, Cherlonneix (Laurent)
2002., Paris, Ouverture Philosophique
1989., Paris, Cerf, *Éthique et humanisme (Essai sur la modernité)*, Clair (André)
Qu'est-ce que les Lumières ? Suivi de *Que signifie s'orienter dans* « Kant (Emmanuel)
« GF », bibliog. et chron. par F. Proust, notes, int., *la pensée ?* trad. J.-F. Poirier et F. Proust
1991., Paris
« éd. Kimé, *La raison créatrice (Moderne ou postmoderne)* », Kremer-Marietti (Angèle)
1996., Paris
« n° 2, coll. Thèmes et structures, *Thèmes et structures dans l'œuvre de Nietzsche*, --
1957., Paris, Série Les cahiers des lettres modernes
in « « D'une hiérarchie à l'autre : Nietzsche et la politique » », Lachaussee (Ingeburg)
« coll. Commentaires philosophiques, *Nietzsche et les hiérarchies* (ouvrage collectif)
2008., Paris, Harmattan
1974., Paris, 1^{ère} éd., col. SUP, PUF, *Nietzsche critique de Kant*, Reboul (Olivier)
coll. Commentaires « *Nietzsche : généalogie de l'individu* », Souchon (Gisèle)
2003., Paris, L'Harmattan, philosophiques